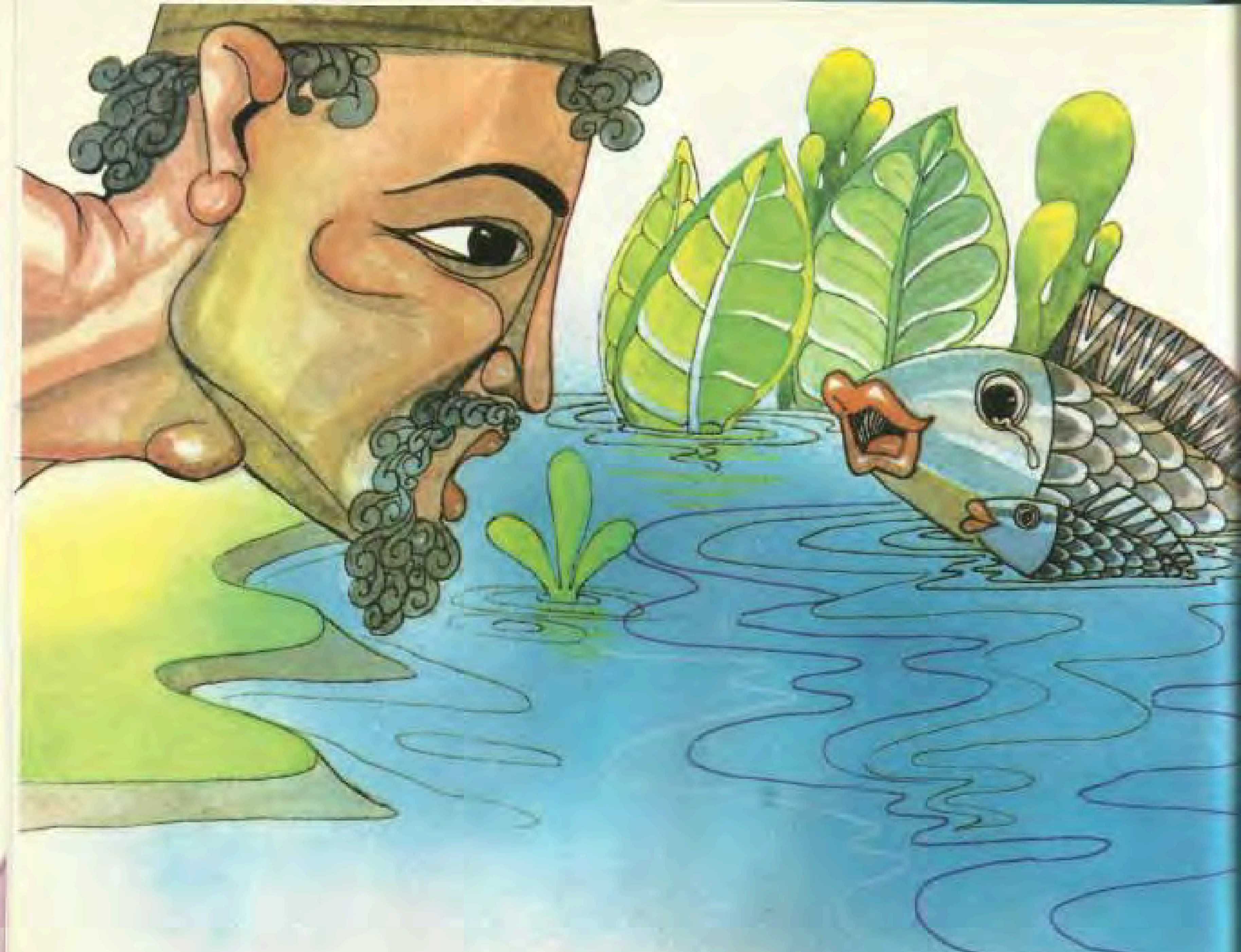
دائرة ثقافة الأطفال

مدينة السَّعْد





لَمْ يُصَدِّقِ الصَّيَّادُ عَيْنَيْهِ ، أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ لَحْظَةً ، ثُمَّ فَتَحَهُما ..
كانَتِ السَّمَكَةُ في مَكانِها ، والدُّموعُ تَلْمَعُ في عَيْنَيْها الذَّهَبِيَّتَيْنِ .
وَسَمِعَ الصَّيَّادُ صَوتَ بُكاءِ السَّمَكَةِ ، وَحَزِنَ مِنْ أَجْلِها ..
رَقَّ قَلبُ الصَّيَّادِ لِلسَّمَكَةِ ، وَأَسْرَعَ إلى الشَّبَكَةِ يَبْحَثُ عَنِ السَّمَكَةِ الصَّغيرَةِ حَتّى وَجَدَها .
كانَتْ تَقْفِزُ وَتُحاوِلُ الرُّجوعَ إلى الماءِ ، وَكانَتْ خَضْراءَ مِثْلَ أُمِّها .
أَمْسَكَ الصَّيَّادُ السَّمَكَةَ الصَّغيرَةَ بِرِفْقٍ ، وَتَرَكَها تَسْبَحُ في الماءِ نَحوَ أُمِّها .
قالَتِ السَّمَكَةُ لِلصَّيَّادِ وَهِيَ تَحْتَضِنُ صَغيرَتَها :
ـ لَقَدْ أَعَدْتَ صَغيرَتي إلى الماءِ قَبلَ أَنْ تَموتَ ، لِذلِكَ أُعْطيكَ مِفتاحَ مَدينَةِ السَّعْدِ . عِنْدَ مُنْتَصَفِ النَّهارِ سَتَجِدُهُ في الشَّبَكَةِ .
وَغاصَتِ السَّمَكَةُ وَمَعَها صَغيرَتُها في أَعْماقِ النَّهْرِ ..

فكَّر الصَّيَّادُ بكلامِ السَّمكةِ عن مِفْتاحِ مَدينةِ السَّعْدِ ، وَطَرَحَ شبكَتَهُ في النَّهرِ ثُمَّ راحَ يُفكِّرُ وَيسْأَلُ نَفْسَه :

ـ أكانَ ما رأيتُ وَسَمِعْتُ ، حقيقةً ، أمْ أنَّني نائِمٌ في الكُوخِ أحْلُمُ ؟ .. في الحُلْمِ يُمكِنُ أن تتكلَّمَ سَمكَةٌ ويُغنِّي حِصانٌ ، ولكنْ في الحقيقةِ ، الإنسانُ والبَبْغاءُ يَسْتَطيعانِ الكلام . كيفَ إذاً تَحَدَّثَتِ السَّمكَة ؟

وقالَ الصَّيَّادُ وهو يُحَدِّثُ نَفْسَهُ :

ـ عِندَ مُنْتَصفِ النَّهارِ ، أعْرِفُ الحَقيقَةَ . إنَّ السَّمَكَةَ وَعَدَتْني بِمِفتاحِ مَدينَةِ السَّعدِ ، وَقالتْ إنَّني سَأجِدُهُ في الشَّبكَةِ ، فَإنْ وَجَدْتُهُ عرَفتُ أنَّني لَمْ أكُنْ نائماً أحْلُم ..





وَمَضى الصَّيادُ يُفكِّرُ في مَدِينَةِ السَّعْدِ وَيَتخيَّلُ صُورَتَها ، وَيُراقِبُ قُرْصَ الشَّمْسِ ، حتّى انْتصَفَ النَّهار .

سَحَبَ الصَّيادُ الشَّبكَةَ إلى الشَّاطِئْ . كانتْ ثَقيلَةً ملأى بالسَّمكِ الكَبير . ولكنَّ الصَّيادَ لَمْ يكنْ مُهْتَمّاً بالسَّمك . كانَ يَبحثُ بِلَهْفَةٍ عَنِ المِفْتاحِ الَّذي وَعَدَتْهُ بِهِ السَّمكَةُ ، مِفتاحِ مدينةِ السَّعْد .

ما أشدَّ دهشَتَهُ حِينَ عَثَرَ عَلى المِفتاحِ الموعودِ بين السَّمك .

فَرِحَ الصَّيادُ جِداً وأمْسكَ بِالمِفتاحِ وَراحَ يُقلِّبُهُ بين كَفَّيْهِ ..

كانَ المِفتاحُ مِنْ فِضَّةٍ ، نُقِشَ بزَخارِفَ مُلوَّنة .

وَلكِنْ .. أَينَ طَرِيقُ مَدِينَةِ السَّعدِ ؟

سَأَلَ الصَّيَّادُ نَفْسَهُ هَذا السُّؤالَ ، بَعد أَنِ اطْمَأَنَّ إلى حُصُولِهِ عَلى المِفتاحِ ، وتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُ لمْ يكنْ يَحْلُم ..

لَقَد نَسِيَ أَنْ يَسْأَلَ السَّمَكَةَ هَذا السُّؤالَ المُهِمَّ ..

إحتارَ الصَّيَّادُ ماذا يَصنَعُ ، وراحَ يُقلِّبُ المِفْتاحَ بَينَ يَدَيْهِ ، وَسُرْعَانَ ما سَمِعَ الصَّوتَ الرَّفيعَ ، صَوْتَ السَّمَكَةِ الخَضراءِ يُنادِيهِ مِنَ النَّهْرِ :

ـ يا عَمُّ يا صَيَّادُ . النَّقْشُ عَلى المِفْتاحِ خُرَيطَةٌ . تَبْدأُ بِنَجْمَةٍ . النَّجْمَةُ هِيَ المَكَانُ الَّذي تَقِفُ فِيهِ . مِنَ النَّجمةِ يَخْرُجُ سَهْمٌ . السَّهْمُ هُوَ الطَّرِيق . إلى جانبِ الطَّرِيقِ نَقْشُ أَمْواجٍ ، الأَمْواجُ هِيَ النَّهر . وَعِندَ نقطَةٍ مِنَ النَّهرِ هُناكَ نَقْشُ قَوْسٍ ، القَوْسُ قَنْطَرَةٌ ، يَخرُجُ مِنْها سَهْمٌ هو طَرِيقٌ ، في نهايته قَافِلَةُ جمالٍ . القافلةُ هي سِلْسِلَةُ جِبال ، وَسِلْسِلَةُ الجبالِ تَتَوَسَّطُها زَهْرَةٌ ، هِيَ بابُ مَدِينَةِ السَّعد . لأَنَّ مَدِينَةَ السَّعدِ تَقَعُ في نِهايَةِ الوادِي الأَخْضرِ ، الَّذي يَزْدَانُ بِزُهُورِ العِطْرِ ، والعِطْرُ هُوَ الدَّلِيلُ الَّذي يُرْشِدُكَ إلى الوادي .





كانَ الصَّيّادُ يَتَأَمَّلُ النُّقوشَ والسَّمَكةُ تَشْرَحُ مَعْناها ، حتّى يَعْرِفَ الطَّريقَ إلى مَدينَةِ السَّعْدِ ، وَعِنْدَما ٱنْتَهتِ السَّمَكَةُ مِنْ شَرحِ النُّقوشِ قالت :

ـ أَمامَكَ رِحْلَةٌ صَعبةٌ طُولُها سِتَّةُ أَيّامٍ عَلَى الأَقْدامِ . وَأَتَمَنّى لَكَ السَّعادةَ وَالسَّلامَةَ .

وَغَطَسَتِ السَّمَكَةُ في الماءِ .

باعَ الصَّيَّادُ مَا اصْطَادَهُ مِنَ السَّمَكِ ، وَكانَ كَثيراً ، واشْتَرى مَا يَحتاجُ إليهِ في رِحْلَتِهِ إلى مدينَةِ السَّعدِ ، وَعَادَ إلى الكُوخِ .

أغلقَ بابَ الكُوخِ بإحْكامٍ ، وَأَخرَجَ المِفْتاحَ مِن طَيَّاتِ ثَوبِهِ وَتَأَمَّلَه ..

كانَتِ الخَريطَةُ وَاضِحَةً . وَعَزَمَ الصَّيَّادُ عَلى أَنْ يَبدأَ الرِّحلَةَ عِندَ فَجْرِ اليَوْمِ التَّالي ، كانَ مُشْتاقاً إلى رُؤيَةِ مَدينَةِ السَّعدِ ، مَلْهُوفاً على اكْتِشافِ حَقيقَتِها . وَظَلَّ أَغْلَبَ ساعاتِ اللَّيلِ يُناجي نَفْسَهُ بِأَحلامٍ عن الحياةِ بمَدينَةِ السَّعد .

كانَ يقولُ : السَّمَكَةُ صادِقَةٌ والدَّليلُ هُوَ المِفْتاحُ الَّذي وجدتُه في الشَّبَكَةِ كما وَعدَتِ السَّمَكَةُ ، وَلكِنْ .. ماذا تَفهمُ السَّمَكَةُ مِن كَلمةِ السَّعادةِ ؟

إنَّ السَّمَكَةَ حَتَّى لو كانَتْ تتكَلَّمُ هي سَمَكَةٌ ، سَعادَتُها أَنْ تَسْبَحَ في الماءِ الَّذي تكثُرُ فِيهِ الأَعْشابُ الرَّطِبَةُ الطَّيِّبَةُ ، حَتَّى يَضَعَها حَظُّها ذاتَ يومٍ في شبكَةِ الصَّيَّادِ أو في حلقِ سمكةٍ أكبرَ مِنها تَبْتَلِعُها أو تموتُ بسلامٍ بَعدَ عمرٍ قصيرٍ ..

وَهَلْ تفهمُ السَّمكة أن السَّعدَ هُوَ المالُ الوَفيرُ ؟

هكذا كانَ يُفكِّرُ الصَّيَّادُ طُولَ اللَّيل .

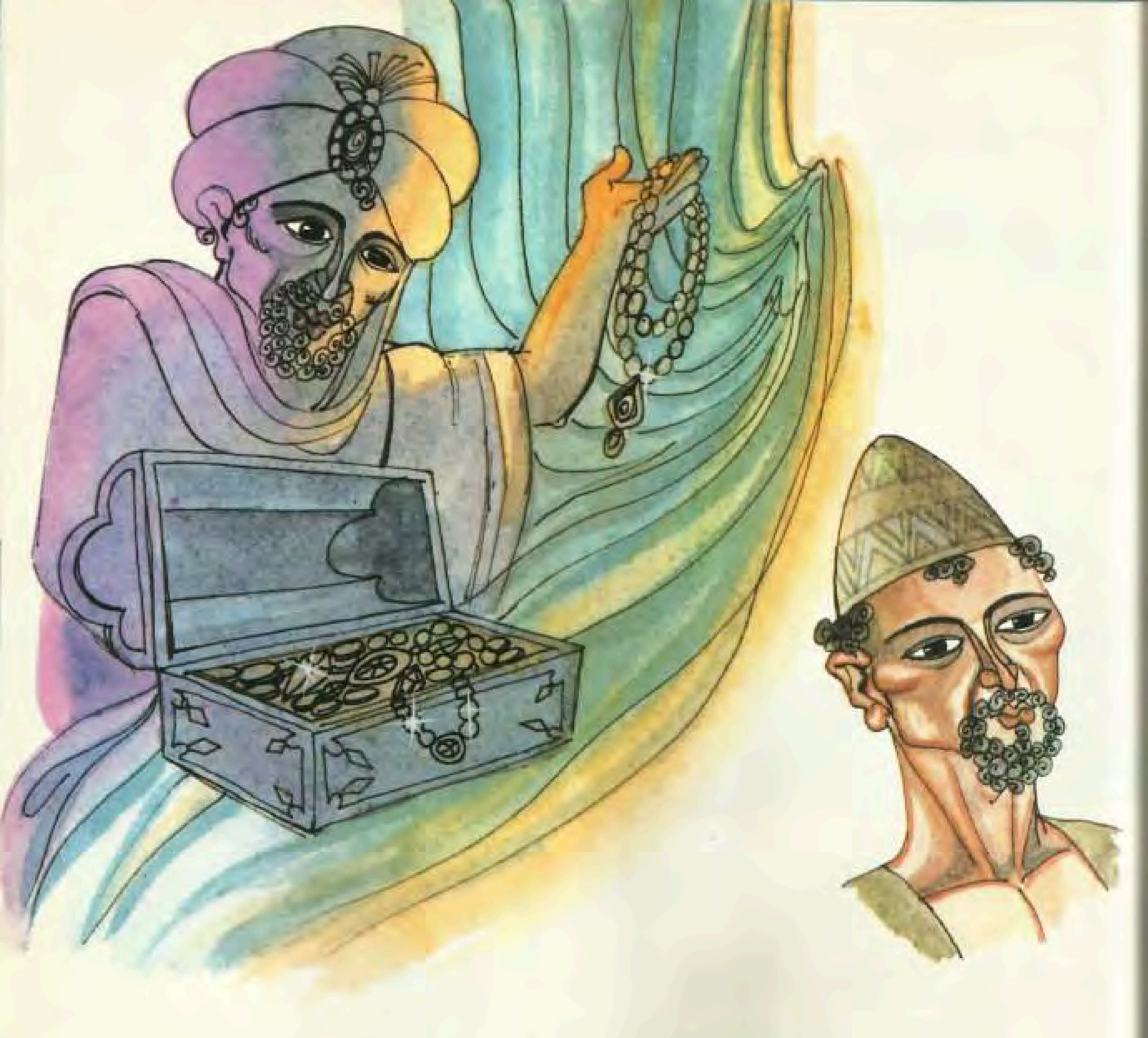


مَعَ أَشِعَّةِ الفَجْرِ الذَّهَبِيَّةِ ، كانَ الصَّيَّادُ عَلى الطَّرِيقِ ، عِنْدَ المكانِ الَّذِي طَرَحَ مِنهُ الشَّبَكَةَ ، وَعادَتْ إليهِ بِالمِفتاحِ .

المِفتاحُ والنُّقودُ في جَيبِ حِزامِهِ الجِلْدِيِّ الجَديدِ ، وَزادُ الرِّحْلَةِ في كيسٍ عَلى مَنْكِبِهِ ، وَبِيَدِهِ عَصاً ، يَتوكَّأُ عَلَيْها . وَلَمْ يَنْسَ الصَّيَّادُ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ شَبَكَتَهُ لِيَسْتَخْدِمَها عِنْدَ حاجَتِهِ إلى الطَّعامِ أَوِ النُّقُود .

كانَ عَلَيهِ أَن يَسيرَ بِمُحاذاةِ النَّهرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ يَعْبُرَ النَّهرَ نَحوَ الشَّرقِ ، وَبَعْدَ مَسيرَةِ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ أُخْرى ، يَصِلُ إلى مَدينَةِ السَّعد .





كانَتِ الأَحْلامُ حَوْلَ مَدِينَةِ السَّعدِ لا تُفارِقُ خيالَه .

تَخيَّلَ الصَّيادُ نَفْسَهُ وهُوَ يَرتَدِيْ الحريرَ ، وَينامُ على فِراشٍ وَثِيرٍ ، وَيَلْعَبُ بالدَّنانِير .

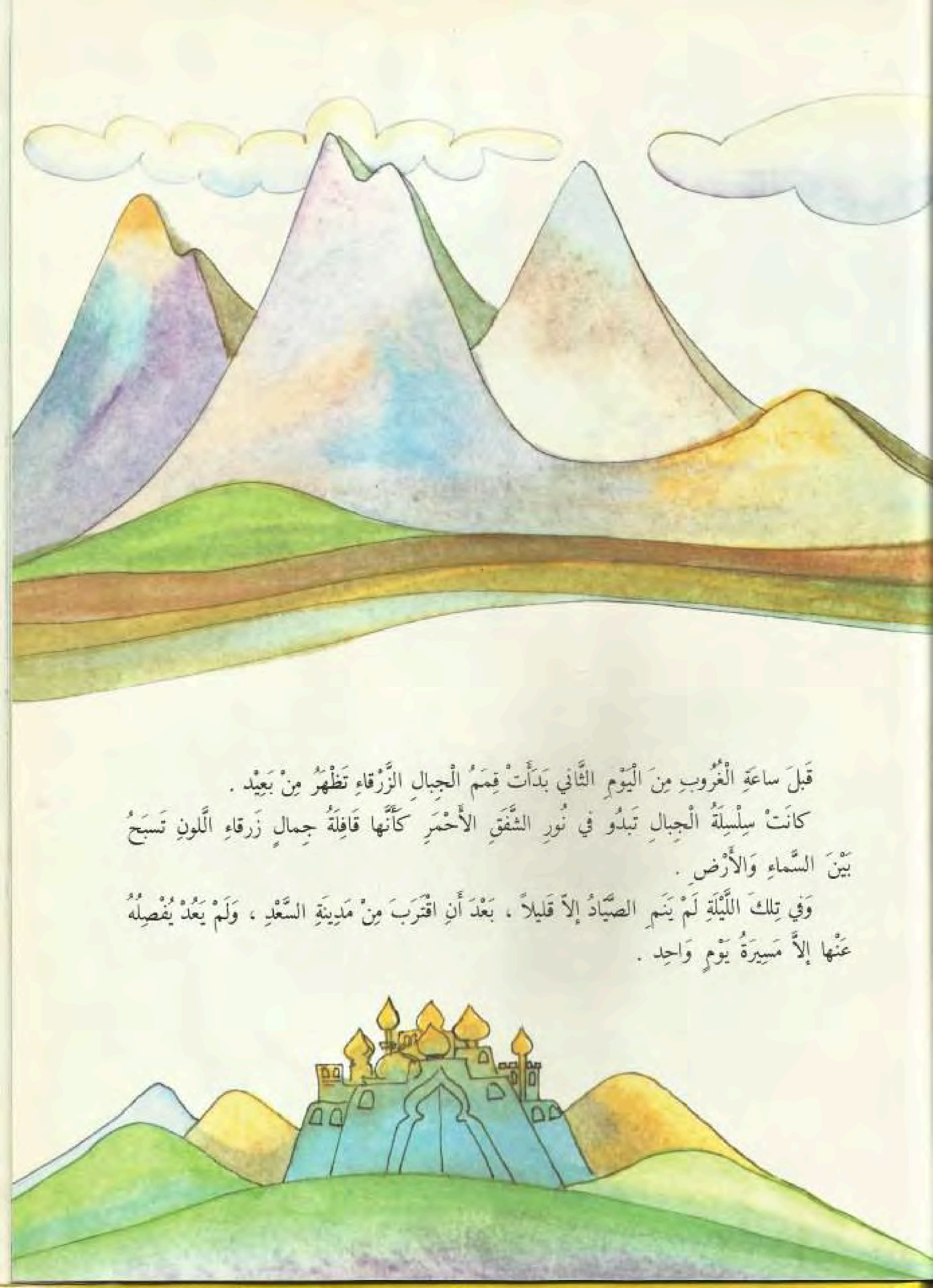
وَقالَ يُناجي نَفْسَهُ : ما دامَتْ مَدِينَةُ السَّعدِ مِن مُدُنِ الدُّنيا ، لا بُدَّ أَن تكونَ ملأى بِخَزائِنِ الذَّهَبِ وَصَنادِيقِ الجَواهِرِ الثَّمينَةِ ، مُزْدانَةً بِالقُصُورِ الفَخْمَةِ الَّتي يَسْكُنُها الأُمَراءُ وَالأَغْنِياءُ ، ويخدُمُ فِيها العَبِيدُ والجَوارِي .



بَعدَ أَنْ سارَ الصَّيّادُ ثَلاثَةَ أَيّامٍ بِمُحاذاةِ النَّهرِ وَصَلَ إلى القَنْطَرَةِ الَّتي تُشيرُ إليها خَريطَةُ المِفْتاحِ ، إستراحَ عِنْدَها قَليلاً ، ثُمَّ عَبَرَها لِيَبْدَأَ السَّيْرَ في الطَّريقِ الَّذي يُؤَدّي إلى سِلْسِلَةِ الجِبالِ .

كانَ السَّيْرُ عَلى هذا الطَّريقِ صَعْباً . لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَريقِ ضِفَّةِ النَّهرِ مَفْروشاً بِظِلالِ الأَشْجارِ ، بَلْ كانَ مَفْتوحاً لِلشَّمسِ ، كَثيرَ الحَصى والحِجارة . غَيرَ أَنَّ الصَّيّادَ سارَ بِجِدٍّ وَاحْتَمَلَ الصِّعابَ بِصَبْرٍ ، فَقَدْ كانَ مُشْتاقاً إلى بُلوغِ مَدينَةِ السَّعْدِ .

كانَ يَنامُ قَليلاً وَيَمشي كَثيراً ، وَكانَتْ أَحْلامُهُ بِمَدينَةِ السَّعْدِ تُخَفِّفُ عَنهُ مَتاعِبَ الطَّريقِ .



قَبلَ ساعَةِ الْغُرُوبِ مِنَ الْيَوْمِ الثَّاني بَدَأَتْ قِمَمُ الْجِبالِ الزَّرْقاءِ تَظْهَرُ مِنْ بَعيدٍ .

كانَتْ سِلْسِلَةُ الْجِبالِ تَبدُو في نُورِ الشَّفَقِ الأَحْمَرِ كَأَنَّها قافِلَةُ جِمالٍ زَرقاءِ اللَّونِ تَسبَحُ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ .

وَفي تِلكَ اللَّيْلَةِ لَمْ يَنَمِ الصَّيَّادُ إلاّ قَليلاً ، بَعْدَ أَنِ اقْتَرَبَ مِنْ مَدينَةِ السَّعْدِ ، وَلَمْ يَعُدْ يُفْصِلُهُ عَنْها إلاَّ مَسيرَةُ يَوْمٍ واحِدٍ .



كانَ قَدْ رَسَمَ لِلْمَدِينَةِ في خَيالِهِ صُورَةً واضِحَةً ، مِنْ كَثْرَةِ ما فَكَّرَ في أَهْلِها وَأَحْوالِها .

أَهْلُها يَلْبَسُونَ الثِّيابَ الباهِرَةَ وَيَتَحَلَّوْنَ بِالجَواهِرِ النّادِرَةِ ، وَيَعِيشُونَ في راحَةٍ دائِمَةٍ ، وَلا يَعْرِفُونَ تَعَبَ العَمَلِ ..

وَإِلاَّ فَما مَعْنَى أَنَّهُمْ سُعَداء ؟!

وَلكِنْ .. مَنْ يَخْدُمُ أَهْلَ مَدِينَةِ السَّعادَةِ ؟

سَأَلَ الصَّيّادُ نَفْسَهُ هٰذا السُّؤالَ ، وَأَجابَ عنه :

ـ يَخْدُمُهُمُ العَبِيدُ والجَوارِي ، وَهٰؤلاءِ سَعادَتُهُمْ في لَعْقِ الصُّحُونِ وَمَلْءِ البُطُونِ !

° ° °

« يا سَلام يا أَوْلادُ ، لِما يَفْتَرِي الإِنْسان ! »

أَسْرَعَ الصَّيَّادُ في سَيْرِهِ نَحوَ سِلْسِلَةِ الجِبالِ ، وَفي مُنْتَصَفِ النَّهارِ وَصَلَ إلى مَدْخَلِ الوادِي الكَبيرِ الَّذِي تُشيرُ إليهِ الخَريطَةُ ، وَالَّذِي قالَتِ السَّمَكَةُ ، إنَّ عِطْرَ أزهارِهِ يَجْذِبُ الإنسانَ إلَيْه ..

أَحاطَتِ الوُرودُ والرَّياحِينُ بِالصَّيَّادِ وَتَنَفَّسَ عِطْرَها مِلْءَ رِئَتَيْهِ ، وَفي الحالِ شَعَرَ بِأَنَّ نِصْفَ تَعَبِ الرِّحْلَةِ قَدْ زالَ عَنْه ..



وَبَيْنَما هُوَ يَتَأَمَّلُ جَمالَ الوادِي الأَخْضَرَ الكَبيرَ ، إذ رَأى بُحَيْرَةً صَغيرَةً تَتَوَسَّطُها عَيْنُ ماءٍ تُشْبِهُ النَّافُورَةَ ، كَأَنَّها تَدْعُوهُ لِيَسْتَحِمَّ فيها ..

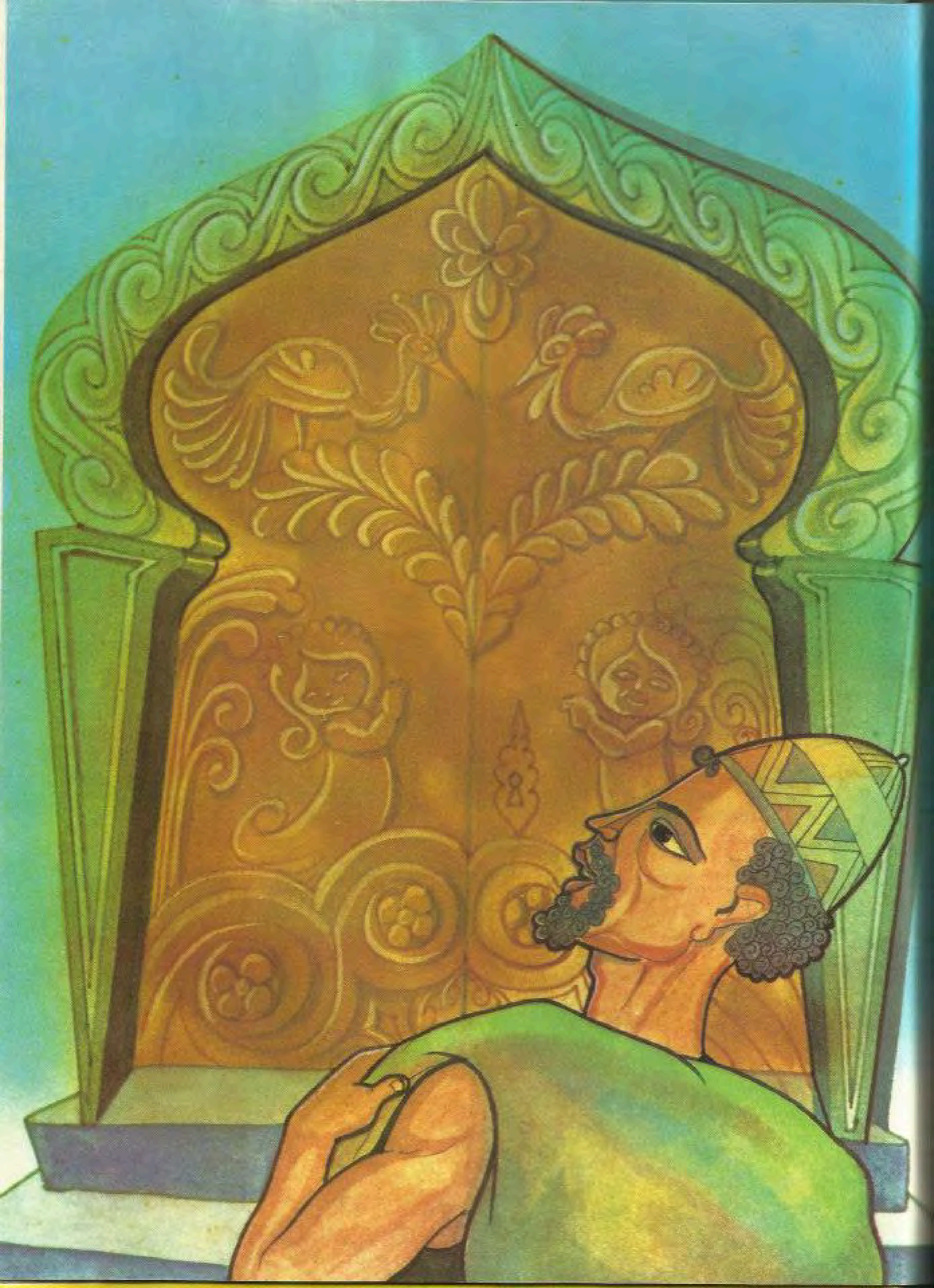
وَضَعَ الصَّيَّادُ حَقِيبَتَهُ وَشَبَكَتَهُ وَعَصَاهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ عَلَى ضِفَافِ البُحَيْرَةِ، وَٱسْتَحَمَّ في ماءِ العَيْنِ ، ثُمَّ ٱرْتَدَى مَلابِسَهُ وَهُوَ يَشْعُرُ بِأَنَّ النِّصْفَ الآخَرَ مِنْ تَعَبِ الرِّحْلَةِ قَدْ زَالَ عَنْهُ .



عِندَ الأَصِيلِ رَأَى الصَّيَّادُ بابَ مَدِينَةِ السَّعْدِ يَتَوَسَّطُ سُوراً عالِياً مِنَ الحَجَرِ. وَكانَ عَلَى السُّورِ ، وَحَوْلَ البَابِ ، نَبَاتَاتٌ مُتَسَلِّقَةٌ مُرَصَّعَةٌ بِأَزْهارٍ بَنَفْسَجِيَّةٍ بَدِيعَةٍ .

بابٌ ضَخْمٌ مِثْلُ أَبْوابِ الحُصُونِ ، وَلَكِنَّهُ مُزْدَانٌ بِزَخارِفَ رائِعَةٍ تُمَثِّلُ طُيُوراً وأزهاراً ، وَأَسْماكاً وَسَعَفَ نَخِيلٍ ، وَأَطْفالاً مِنْ بَنِينَ وَبَناتٍ ، يَرْقُصُونَ تَحتَ الغُصُونِ ..

أَدارَ الصَّيَّادُ المِفْتاحَ في ثَقْبِ البابِ ، وانْفَتَحَ بابُ مَدِينَةِ السَّعادَةِ عَلى مِصْرَاعَيْهِ ..



إِنْفَتَحَ البَابُ عَلى ساحَةٍ واسِعَةٍ ، تَحفُّ بِها الأَشْجارُ المُثْمِرَةُ المُزْهِرَةُ ، وكانَ بِالسَّاحَةِ جماعةٌ مِنْ أَهْلِ مَدِيْنَةِ السَّعْدِ جاءوا لِيَسْتَقْبِلوا الصَّيّاد ..

بَدَتِ الدَّهْشَةُ عَلى وَجْهِ الصَّيّادِ وَهُوَ يَسْأَلُ نَفْسَه :

ـ كَيفَ عَرَفُوا بِقُدومي .؟!



وَتَقَدَّمَتْ مِنْهُ صَبِيَّةٌ تَحْمِلُ بَاقَةَ أَزْهارٍ وَقالَتْ لَه :

ـ مَرْحَباً بِصَيَّادِ السَّمَكِ في مَدِينَةِ السَّعْدِ . وَمَدِينَةُ السَّعْدِ يا عَمُّ يا صَيَّادُ ، كُلُّ مَنْ فِيها سَعِيدٌ ، الكِبارُ يَعْمَلُونَ ، وَالصِّغارُ يَتَعَلَّمونَ ، وَكُلُّ واحِدٍ يُقَدِّمُ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ لأَهْلِ المَدِينَةِ بِغَيْرِ ثَمَنٍ ، وَهُمْ كَذلِكَ يُقَدِّمونَ إِلَيهِ حاجَتَهُ بِغَيْرِ ثَمَنٍ ، وَهذا مَعْنى السَّعادة . وَكَلِمَةُ « البَرَكَةِ » هي عُمْلَةُ المَدِينَةِ ، بِها نَشْتَرِي وَنَبِيعُ ، وَلَيْسَ في مَدِينَتِنا نُقُودٌ ، وَلا سَيِّدٌ وَلا مَسُود ! »

كانَ عَقْلُ الصَّيَّادِ يَعملُ بِسُرْعةٍ ، لِيَفْهَم ما يَجْري حَوْلَهُ ، وَحِينَ مَدَّ يَدَهُ لِيَتَناوَلَ مِنَ الصَّبِيَّةِ باقَةَ الوَرْدِ ، وَقعَتْ عَصاهُ عَلى الأَرْضِ .

إنْحَنى الصَّيَّادُ لِيَسْتَعِيْدَ عَصاهُ فَقالَتِ الصَّبِيَّةُ :

- اتْرُكْها مَكانَها يا عَمُّ يا صَيَّاد .

نَاوَلَتْهُ الصَّبِيَّةُ باقَةَ الأزهارِ وَهِيَ تَبْتَسِمُ وَطَلَبَتْ مِنهُ مِفْتاحَ المَدِيْنَةِ فَسَلَّمَهُ إليها ، ثمَّ سَأَلَتْهُ الصَّبِيَّةُ :

- هَلْ مَعَكَ نُقُود ؟

ناوَلَها الصَّيَّادُ كِيْسَ نُقُودِهِ .. وَقالَتْ لَهُ الصَّبِيَّةُ :

- فِي مَدِيْنَتِنا لَنْ تَحتاجَ إلى عَصا ، وَلاَ إلى نُقُود !





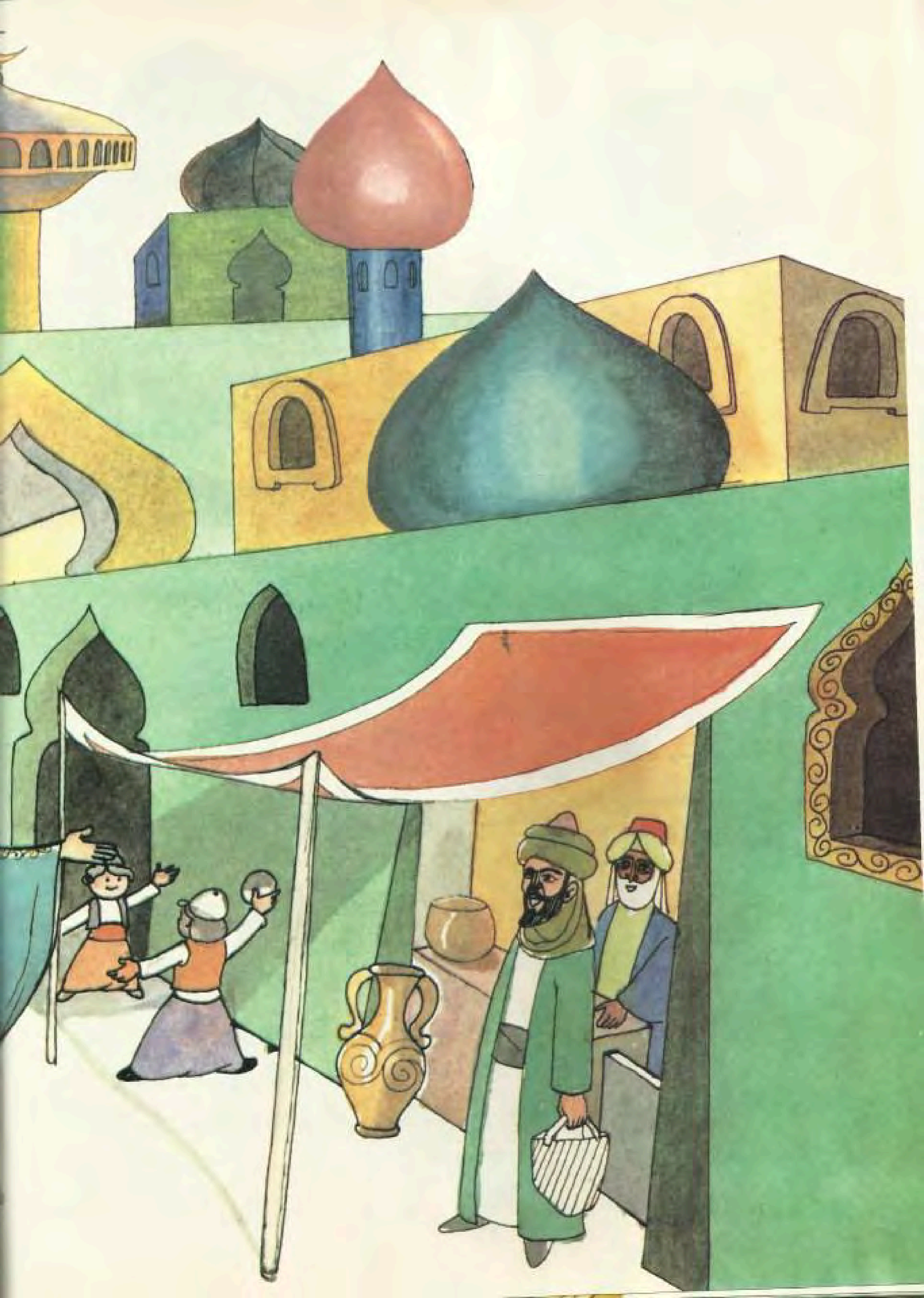
تَقدَّمَ مَنْ كانَ في اسْتِقْبالِهِ مِنْ أهْلِ المَدينَةِ يُصافِحُونَهُ وَحَملوا عنهُ شَبَكَتَهُ وَحَقيبَتَهُ ، وَمالُوا بِهِ إلى مَضيفٍ تَصْدَحُ فيهِ مُوسيقى عَذْبَةٌ ، وسَألوهُ عَمَّا يَحْتاجُ إليهِ في حَياتِهِ الجَديْدَة ..

كادَ الصَّيّادُ أَنْ يَطْلُبَ قَصْراً وكَنْزاً وَأَميرَةً يَتزَوَّجها ، وَلكِنَّه تَريَّثَ وَقَرَّرَ أَنْ يَبْدأَ بِتَحْقيقِ حُلْمِهِ المُتَواضِعِ القَديم .

طَلَبَ بَيْتاً صَغيراً مِنَ الحَجَرِ وَقارِبَ صَيد .. ثُمَّ تَمنَّى لَوْ أَنَّ أَهْلَ المَدِيْنَةِ جادُوا عَلَيْهِ بِزَوْجَةٍ طَيِّبَة ..

وَتَحدَّثَ شَيْخٌ وَقُورٌ لَهُ لِحْيَةٌ بَيْضاءُ ، قال :

ـ أَمَّا بيتُ الحجَرِ وَالقارِبِ ، فَإنَّ أَمْرَهُما سَهلٌ ، فَإنَّ بالمَدِيْنَةِ بَنّائيْنَ مَهرَةً وَنجّارِينَ مُمْتازِين ، وَأَمَّا الزَّوْجَةُ الطَّيِّبَةُ فَإنَّ بالمَدِيْنَةِ فَتَياتٍ في سِنِّ الزَّواجِ ، وَيَكْفِي أَنْ تَرضَى بِكَ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ حَتَّى نَزُفَّها إلَيْك .



بعدَ عَشاءٍ شَهِيٍّ نامَ الصَّيّادُ على فِراشٍ نَظيفٍ مُريحٍ وَفي أَحْلامِهِ رَأى نَفْسَهُ يَعيشُ في قَصْرٍ فَخمٍ ، وَلَهُ زَوْجَةٌ طَيِّبَةٌ وَجَميلَةٌ .

وَفي الصَّباحِ دعاهُ الشَّيْخُ ذُو اللِّحيَةِ البَيْضاءِ وصَحِبهُ إلى جَوْلَةٍ بِالمَدينَةِ .

« ما أَجْمَلَها مَدينَةَ السَّعْدِ يا أَوْلاد »

« وَيا لَيْتَنا كُنّا مِنْ أَهْلِها ! »

البِشْرُ على وُجوهِ الصِّغارِ وَالكِبارِ ، وَالخَيْرُ في حَوانيتِ السُّوقِ ، والنَّشاطُ في المَدارِسِ والمَصانِعِ ، وَبَهْجَةُ الرَّبيعِ في الحدائِقِ الغَنّاءِ والطُّرقاتِ المُظَلَّلَةِ بالأَشْجار ..

وَحِينَ بَلَغَ الصَّيّادُ والشَّيخُ ضِفَّةَ النَّهرِ الّذي يَجْري وَسْطَ المَدينَةِ ، سَأَلَ الصَّيّادُ صاحِبَه :

ـ أَلَيسَ في المَدينَةِ صَيّادون ؟

وَأَجابَهُ الشَّيخ :

بِالمَدينَةِ ثَلاثَةٌ مِنْهُم يَصْطادونَ حَوْلَ جَزيرَةٍ بِالنَّهرِ تَراها هُناكَ ..

كانَتِ الجَزيرَةُ تَتَوَسَّطُ النَّهْرَ العَريضَ وَحَوْلَها قَوارِبُ صيدٍ ثَلاثَةٌ

وَسَأَلَهُ الشَّيخُ : ـ مَتى تَنضَمُّ إلَيْهِمْ ؟

قالَ الصَّيّادُ : ـ عِنْدَما أَتَسَلَّم قارِبي .



فَرَغَ النَّجّارونَ مِنْ صناعةِ القارِب .
وَفَرَغَ البَنّاؤن مِنْ بِناءِ البَيْت .
وَحملَ الحمّالُونَ الأَثاثَ الّذي اختارَهُ الصّيّادُ مِنَ السُّوقِ ، وَجاءُوا بِهِ إلى البَيْت .
وَكُلُّ ذلكَ كانَ بِغَيْرِ ثَمَن ..
قالَ الصّيّادُ لِلنّجارِينَ : إشْتَرَيْتُ هذا القارِبَ بِالبركَةِ .
وَصارَ القارِبُ لَه !
وَقالَ لِلبَنّائِينَ : إشْتَرَيْتُ هذا البَيْتَ بِالبَرَكَةِ ..
وَصارَ البَيْتُ لَه !
وَقالَ لِتاجِرِ الأَثاثِ : إشْتَرَيْتُ هَذا الأَثاثَ بِالبركَةِ ..
وَصارَ الأَثاثُ لَه !





إِسْتَقَرَّ الصَّيَّادُ في بَيْتِهِ ، وَتَعَرَّفَ عَلَى جِيرَانِهِ ، وَانْضَمَّ إلى الصَّيَّادِينَ الثَّلاثَةِ بِقارِبِهِ الجَدِيدِ وَشَبَكَتِهِ القَدِيمَة ..

كانَ يَصْطادُ السَّمَكَ هُوَ وَرِفَاقُهُ مِنَ الصَّباحِ المُبَكِّرِ حَتَّى الظُّهْرِ ثُمَّ يَبِيعُ صَيْدَهُ في السُّوقِ بِالبَرَكَةِ ، وَيَشْتَرِي بِالبَرَكَةِ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ ، وَفي المَساءِ يَقْضِي ساعاتٍ مِنَ السَّمَرِ مَعَ جِيرَانِه .



أُمْنِيَّةٌ واحِدَةٌ مِنْ أَمانِيِّ الصَّيَّادِ لَمْ تَتَحَقَّقْ ، هِيَ أَنْ تكونَ لَهُ زَوْجَةٌ طَيِّبَة ..

لَمْ يكنْ بِالْمَدِينَةِ مُلوكٌ وَلا أُمَراءُ وَلا أَميراتٌ كَما كانَ يَتَصَوَّرُ في أَحْلامِهِ بِمَدِينَةِ السَّعْدِ .

وَكانَ عَلَيهِ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ فَتاةٍ تَرْضَى بِهِ مِنْ بَيْنِ بَناتِ المَدِينَةِ ..

وما كانَ أجملَ بَناتِ مَدِينَةِ السَّعْدِ .

وفي ذَاتَ يومٍ ، دَعاهُ أَحَدُ جِيرانِهِ إلى العَشاءِ في بَيْتِهِ ، وَرَأَى الصَّيَّادُ ابْنَةَ جارِهِ وَأَعْجَبَهُ جَمالُها . كانَتْ تُشْبِهُ الأَميراتِ كَما تَخَيَّلَهُنَّ في الحكاياتِ . جاذَبَها أَطْرافَ الحَدِيثِ فَوَجَدَها مُؤَدَّبَةً مُهَذَّبَةً ، وَعَرَفَ أَنَّها تَعْمَلُ في مَعْرِضٍ لِتَنْسِيقِ الأَزهار .



قَرَّرَ الصَّيَّادُ أَنْ يُفاتِحَ جارَهُ بِرَغْبَتِهِ وَيَطْلُبَ مِنهُ يَدَ بِنتِهِ .

لَمْ يكنْ يَعرِفُ إنْ كانَ يَنْطَبِقُ عَلى الزَّواجِ ما يَنْطَبِقُ عَلى غَيرِهِ مِنْ أُمورِ الدُّنيا في مَدينةِ السَّعدِ ، وَهَلْ عَليهِ أَنْ يَطْلُبَ يَدَ الفَتاةِ بِالبَرَكَة ..

سَأَلَ رِفاقَهُ الصَّيَّادِينَ وكانَ جَوابُهُمْ أَنَّ الزَّواجَ يَحْتاجُ إلى رِضا الفَتاةِ ، وَالمَهْرُ كَلِمَةُ «البَرَكَةِ» ، يَقولُها أَمامَ القاضي وَبِذلِكَ يَتِمُّ الزَّواج !

وَتَمَّتِ الخِطْبَةُ ثُمَّ كانَ الزِّفافُ حَديثَ أَهلِ المَدينَة .

عاشَ الصَّيَّادُ أَيَّاماً سَعِيدَةً فَقَدْ كانَ مِنْ عادَةِ أَهْلِ مَدِينَةِ السَّعْدِ أَنْ يَمْنَحُوا العَروسَيْنِ « حَقَّ الكَسَلِ » شَهراً ، يُسَمُّونَهُ شَهْرَ العَسَلِ ...

وَفي اليَوْمِ الثَّلاثِيْنِ بَعْدَ الزِّفافِ ، أَصلَحَتِ العَرُوسُ شَبَكَةَ زَوْجِها وَجَهَّزَتْ أَدواتِ الصَّيْدِ وَثِيَابَ العَمَلِ ، وَفي الصَّباحِ التَّالي نَهَضَتْ مُبَكِّرَةً وَأَعَدَّتِ الإِفْطَارَ وَنادَتْ زَوجَها لِيَبْدَأَ يَومَ عَمَلٍ جَدِيدٍ بَعْدَ شهرِ العَسَلِ .

لكِنَّ الصَّيَّادَ رَفَضَ أَنْ يَنْهَضَ وَاسْتَمَرَّ يَغُطُّ في النَّوْمِ ، وَمَضَتِ الزَّوجَةُ إلى عَمَلِها وَهِيَ تَتَعَجَّبُ مِنْ حالِ زَوْجِها .

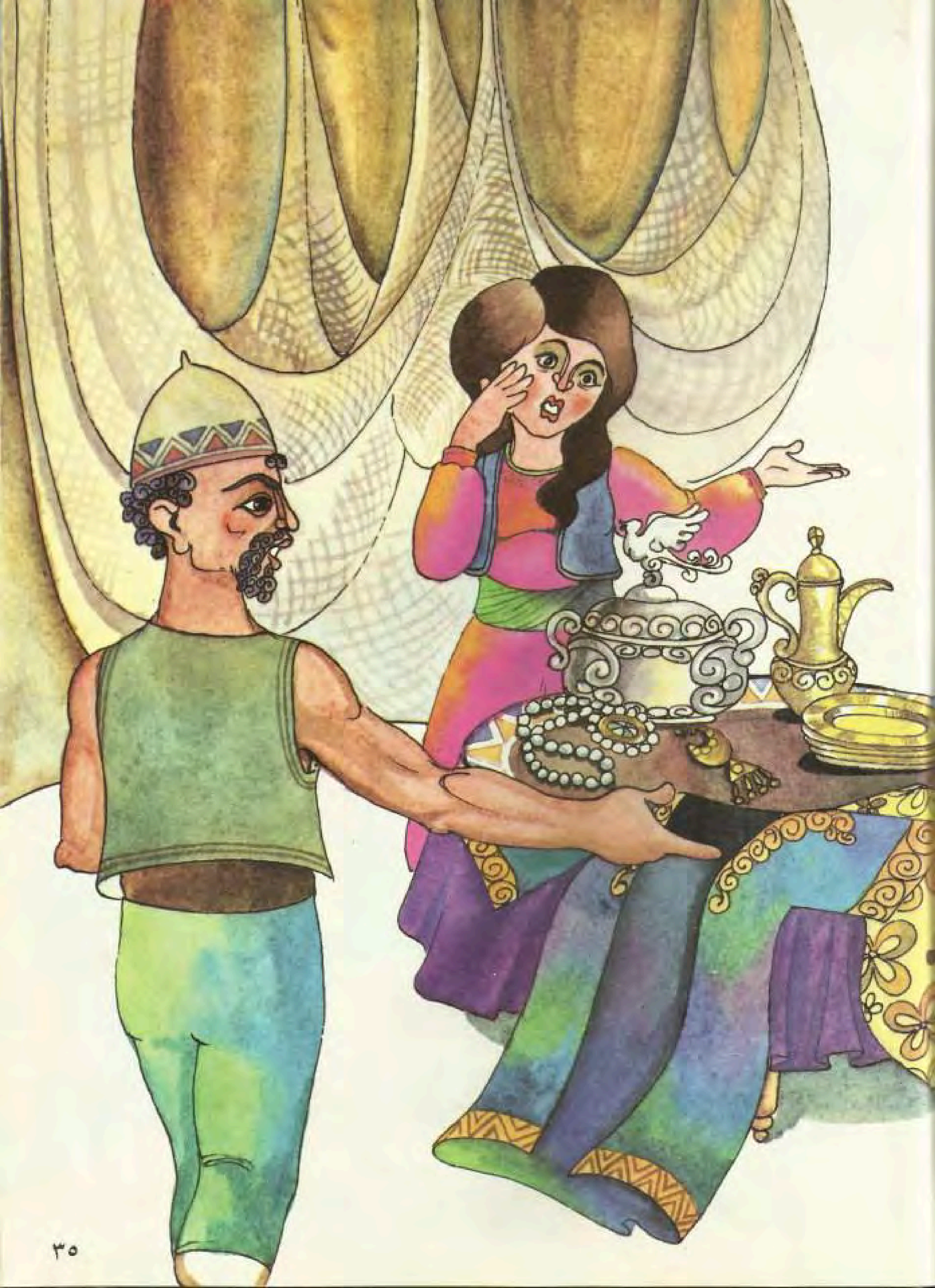
عِندَ الضُّحَى ، اسْتَيْقَظَ الصَّيَّادُ وَنَهَضَ مُتَثَاقِلاً وَتَناوَلَ إِفْطَارَهُ مُتَكاسِلاً ، وخَرَجَ إلى طُرُقاتِ المَدِينَةِ يَتَسَكَّعُ . وَفي السُّوقِ مَضَى يَشْتَرِيْ – بِالبَرَكَةِ – أَشياءَ لَمْ يَكُنْ بِه حاجةٌ إليها ، وَلكِنَّها كانَتْ ثَمِينَةً وَجَذَّابَةً تُغْرِي بِالشِّرَاء .

إشْتَرَى الصَّيَّادُ حُلِيّاً وَجَواهِرَ وَأَطباقاً مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَثِياباً مِنْ حَرِيرٍ ، وَعادَ إلى البيتِ وَخَلْفَهُ حَمَّالٌ يَحمِلُ ما اشْتَرَاهُ بِالبَرَكَةِ ، دونَ أَنْ يَكونَ بِه حاجةٌ إليه .

سَأَلَتْهُ زَوْجَتُهُ بِدَهْشَةٍ : مَا كُلُّ هَذِهِ الأَشْيَاءُ الَّتِي ليست لنا بها حاجة ؟

وَأَجابَ : وَهَلْ دَفَعْنا فِيها ثَمَناً ، إِنَّها لَمْ تُكَلِّفْنِي غَيرَ كَلِمةٍ !

وَحزنت الزَّوْجَةُ الطَّيِّبَة .



فِي اليَوْمِ التَّالي وَأَيَّامٍ بَعْدَه .. رَفَضَ الصَّيَّادُ أَنْ يَلْحَقَ بِرِفَاقِهِ الصَّيَّادِيْن . كانَ يَقولُ كاذِباً إنَّهُ مَرِيض .

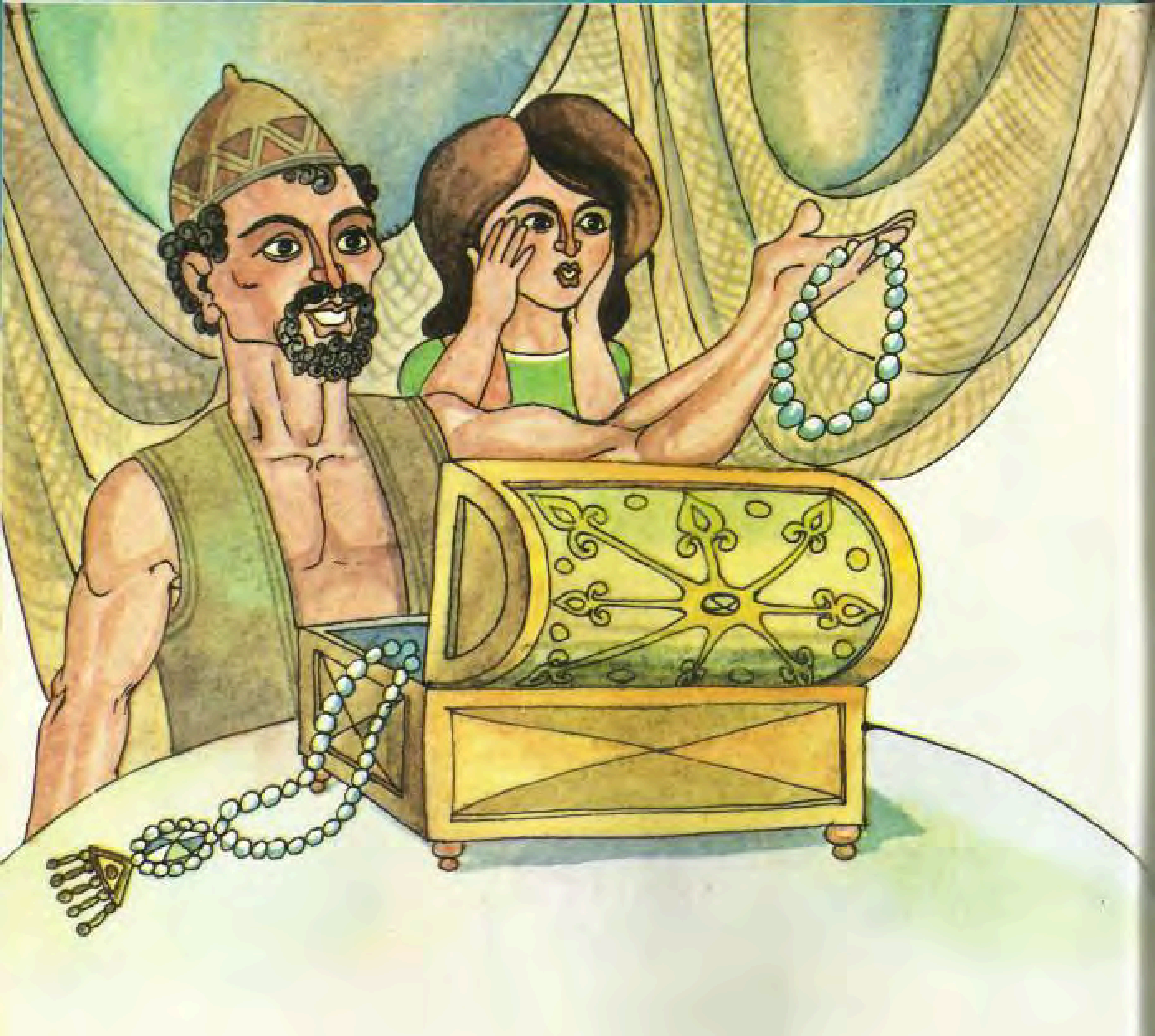
وَجاءوا يَسْأَلُونَ عَنْ سَبَبِ غَيْبَتِهِ ، وَحِينَ قالَ لَهُمْ إنَّهُ مَرِيضٌ ، إنْزَعَجُوا وَمَضَى أَحَدُهُمْ وَعَادَ وَمَعَهُ طَبِيبٌ .

وَفَحَصَهُ الطَّبِيبُ ، وَقَالَ إنَّ الصَّيَّادَ لا يَشْكُو مِنْ مَرَضٍ في جِسْمِهِ بَلْ مِنْ مَرَضٍ في نَفْسِه .

وَسَأَلَ الصَّيَّادونَ : وَالعِلاج ؟

قالَ الطَّبِيبُ : أَلْعِلاجُ قَرِيب !





إسْتَمَرَّ الصَّيّادُ في خِطَّتِه ..

لا يَخْرُجُ إلى الصَّيْدِ ولكنْ يَخْرُجُ إلى السُّوقِ يَشْتَرِيْ ـ بِالبَرَكَةِ ـ ما خَفَّ حَمْلُهُ وَغَلا ثَمَنُهُ ، وَيَعُودُ يَخْزِنُ ما اشْتَراهُ في صُنْدُوقٍ كَبِيرٍ مِنَ الخَشَبِ ، اشْتَراهُ مِنَ السُّوقِ لِهَذا الغَرَض .

وَحاوَلَ الصَّيّادُ أَنْ يُقْنِعَ زَوْجَتَهُ بِأَنْ تَتَحَلَّى بِجَواهِرَ غالِيَةٍ ، فَقالَتْ لَهُ :

ـ عِنْدِي ما يَكْفِينِي ، وَلا مَعْنَى لاقْتِناءِ المَزِيدِ ، بَلْ هُوَ ذَنْبٌ لا يُغْتَفَر .

وذاتَ يومٍ قالَ لِزَوْجَتِه :

ـ لقَدْ ضَاقَ بِنَا البَيْتُ وأصبحت بنا حاجةٌ إلى مكانٍ رَحِيب ..

ماذا لَوْ اشترينا قَصْراً .. هَلْ تَعلمينَ : ما أروع أن يعيش الإِنْسَانُ في قصرٍ !

وقالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ وَهِيَ تَحبِسُ دُمُوعَها : لَوْ فعلْتَ ذلِكَ فَلَنْ أَخْرُجَ مِنَ البَيْتِ إلى القَصْر .. بَلْ أَعُودُ إلى أُسْرَتي .

لَمْ يَتأثَّر الصَّيَّادُ بِحَديثِ زَوْجَتِهِ وَمَضَى لِيَتَّفِقَ مَعَ عُمَّالِ البِناءِ على بناءِ القَصْر ..

كانَ قَدْ مَضَى عَلَى انْقِطَاعِهِ عَنِ الصَّيْدِ شَهرٌ كامِل ..

في طَرِيقِهِ إلى عُمَّالِ البِناءِ التَقى بِالشَّيخِ ذِي اللِّحيَةِ البَيْضَاءِ الَّذِي طَافَ بِهِ أَرْجَاءَ المَدِينَةِ أَوَّلَ عَهْدِهِ بِها ..

كانَ الشَّيخُ يَحْمِلُ عَصا الصَّيَّادِ وَهِيَ العَصا الوَحِيدةُ الَّتي كانَتْ بِالمَدِينَة .

نادَى عَلَيهِ الشَّيخُ وَأَشَارَ نَحْوَهُ بِالعَصا ، فَوجَدَ الصَّيَّادُ نَفْسَهُ مُنْقاداً إلى الشَّيخِ بِقُوَّةٍ لا يَقْدِرُ عَلَى مُقاوَمَتِها !

وَمَضَى الشَّيخُ نَحوَ بَابِ المَدِينَةِ وَمِنْ خَلْفِهِ الصَّيَّادُ لا يَقْوَى عَلَى المُقاوَمَةِ مِثْلَ مسمارٍ يَنْجَذِبُ إلى قَضِيبٍ مِغْنَاطِيسِيّ ! ، وَكانَ أهلُ المَدِينَةِ يُشَيِّعُونَ الصَّيَّادَ بِنَظَراتٍ حَزِينَةٍ آسِفَة .







بَعْدَ أَنِ اقْتَرَبا مِنْ بَابِ المَدِينَةِ ، إنْفَتَحَ البَابُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ . وَتَوَقَّفَ الشَّيْخُ وَأَشَارَ إلى الصَّيَّادِ أَنْ يَخْرُجَ ..

خَرَجَ الصَّيَّادُ مِنْ بَابِ المَدِينَةِ ، وَأَلْقَى إِلَيْهِ الشَّيْخُ بِعَصاهُ وَهُوَ يَقول .. :

ـ حَتَّى مَاءُ العَيْنِ الطَّاهِرَةِ لَمْ تُطَهِّرْكَ مِنَ الجَشَعِ والطَّمَعِ .

وَانْغَلَقَ البَابُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ وَرَاءَ الصَّيَّاد .

وَجَدَ الصَّيَّادُ شَبَكَتَهُ وَحَقِيبَتَهُ وكِيسَ نُقودِهِ على عَتَبَةِ البَابِ ، وَوَجَدَ سَلَّةً بِها طَعامٌ يَكْفِيهِ في رِحْلَتِهِ وَقِرْبَةَ ماء ..

وَلَمْ يَجِدْ شَيْئاً غيرَ ذلك .

وَقفَ الصَّيادُ أَمامَ البابِ المُغلَقِ يَدُقُّه بِقَبْضَتَيْهِ ...
صاحَ بِأَعْلا صَوْتِهِ : يا أَهْلَ مَدِينَةِ السَّعْدِ دَعُوني أَدْخُلُ مَدِينَتكُمْ وَسَتَجِدُونَ مِنِّي كُلَّ خَيْرٍ ..
وَلكِنَّ مُحاولاتِ الصَّيادِ رَاحَتْ أَدْرَاجَ الرِّياحِ ..
لَمْ يَكُنْ يَصِلُ إلى سَمْعِهِ غَيْرُ صَدَى صَرَخاتِه تُرَدِّدُها جَنَباتُ الوَادِي الكَبِيرِ .
وَحَلَّ الظَّلامُ .. وَمَضَى الصَّيادُ يَتوكَّأُ عَلى عَصاهُ وَقَدْ تأَكَّدَ أَنَّهُ لَنْ يَرَى مَدِينَةَ السَّعْدِ مَرَّةً أُخْرَى ...
وَبَكَى الصَّيادُ في طَرِيقِ العَوْدَةِ بِدُمُوعٍ غَزِيرَة .



مدينةُ السَّعْد

إعداد : فتحي خليل

رسوم : عبدالشافي سيد

الإخراج الفني : شريف الراس



كانَ يا ما كانَ في قديمِ الزَّمانِ صيّادُ سمكٍ ، فَقيرُ الحالِ ، مَحرومٌ مِن نِعمةِ الجَمالِ ..

كانَ الصَّيّادُ يَعيشُ وَحيداً ، في كُوخٍ مِن خَشَبٍ قُربَ النَّهرِ، يَسْتَيقِظُ عِنْدَ الفَجْرِ ، وَيَصْطادُ السَّمَكَ حَتّى الظُّهرِ ، وَيَذْهَبُ إلى السُّوقِ ، يَبيعُ السَّمَكَ ثُمَّ يَعودُ إلى كُوخِهِ الصَّغيرِ . يستريحُ ، ثُمَّ يُصْلِحُ شبكَتَهُ ، وَبَعْدَ أَنْ يَتناوَلَ طَعامَ العَشاءِ يَجْلِسُ أَمامَ بابِ الكُوخِ ، يُفكِّرُ في حالِهِ حَتّى يَغْلِبَهُ النُّعاسُ ، فَيأْوِيَ إلى الكُوخِ ، وَينام .



لمْ يكُنْ لِلصَّيَّادِ أصدقاءُ . كَانَ يَقضِي وَقتَ فرَاغِهِ القَليلِ فِي الأحلامِ .

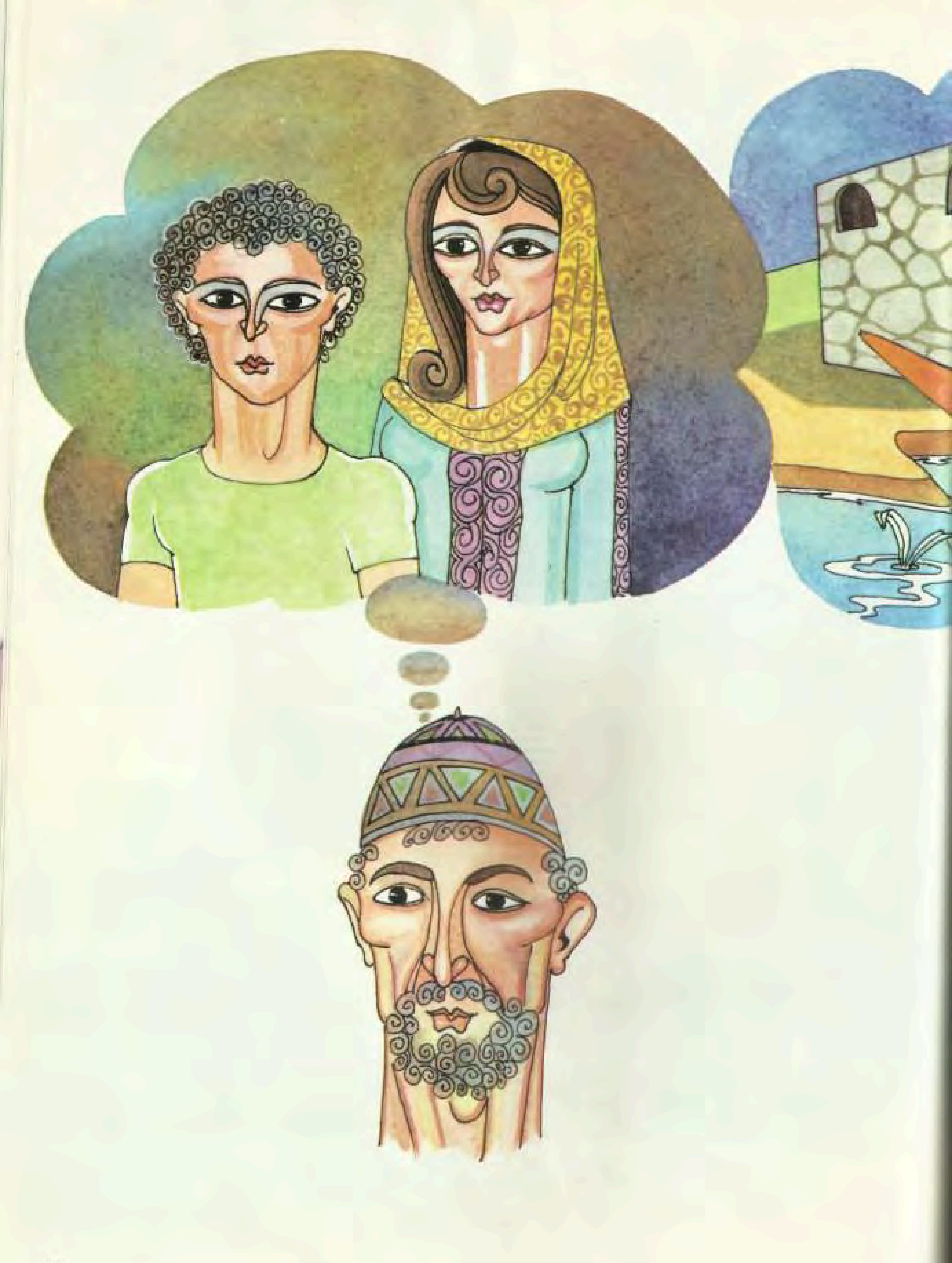
مَرَّةً يتخيَّلُ أنَّهُ صارَ غنيًّا ، يَملِكُ مائةَ مَركَبِ صَيدٍ ، يَعملُ عليها ألفُ صيّاد .

ومَرَّةً يَتواضَعُ ويَتَمنَّى في أحلامِهِ ثَلاثَ أُمنياتٍ :

أنْ يَكُونَ لَهُ بيتٌ صَغيرٌ مِنَ الحَجَرِ ..

وَقارِبٌ يُساعِدُهُ عَلى الصَّيدِ وَسْطَ النَّهرِ ، لِيصْطادَ السَّمَكَ الكَبيرَ .

وَزَوجَةٌ طيِّبَةٌ تُؤنِسُهُ ، وَتُصلِحُ شَبَكَتَهُ ، وتَطهُو طَعَامَهُ وتَغسِلُ ثِيابَهُ ، وَتُنْجِبُ لَهُ وَلَداً يُساعِدُهُ في الصَّيْد .



ذات صَباحٍ ، طَرحَ الصَّيّادُ الشَّبَكَةَ في النَّهرِ ، وَبَعدَ ساعةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، سَحَبَها نَحوَ الشَّاطِئِ ، وَراحَ يَلْتَقِطُ مِنها السَّمَكاتِ ، والسَّمَكاتُ تَقفِزُ وَتُحاوِلُ العَوْدَةَ إلى النَّهرِ .

فَجْأَةً سَمِعَ الصَّيّادُ مِنْ خَلْفِهِ ، صَوْتاً رَفيعاً حَزيناً يَقُولُ :

- يا عَمُّ يا صَيّادُ . إرْحَمْ سَمَكَةً صَغيرةً ضَعيفةً وَقَعَتْ في الشَّبَكَةِ ، وَهِيَ لا تَصْلُحُ لِلأَكْلِ أَوْ للبيعِ ، وَلكِنَّها غاليةٌ جِداً عِنْدي . إنَّها ابْنَتي !



خافَ الصَّيّادُ . دَقَّ قَلْبُهُ بِشِدَّةٍ وَبِسُرْعَةٍ ، إلتَفَتَ بِحَذَرٍ نَحوَ مَصْدَرِ الصَّوتِ . رأى سَمَكَةً كَبيرَةً تُطِلُّ بِرَأْسِها الأَخْضَرِ مِنَ الماءِ . شَفَتاها الوَرْدِيَّتانِ تَتَحَرَّكانِ .. وَتَتَكَلَّمُ !